بتاريخ 21 جمادى الاول 1445
الاوامر

الجلسة 34

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينْ

مواصَفاتُ صرفِ الوجود هي عينُ ذاتِه الوَدود
لقد تحدّث السيد الخمينيّ حولَ صفات الباري تعالى قائلاً بضمونه:

إن الصفاتِ الثبوتيّةَ الإلهية تُعدّ عينَ ذاته تعالى و ذلک وفقاً للتحقيق الفلسفيّ، إذن فكافةُ الصفات الثبوتية تَئول إلى عنوان خاص وهو الوجود المطلق أو صرفُ الوجود، و لكنّ هذا الإرجاعَ لا يُمكن إذ يَلزم أن يكون هذا الثبوت الواحد حاكياً عن سلب الصفات السلبية، فوجوب الوجود حاک عن كل الصفات السلبية، و ذلک من باب أن المتناقضان لا يجتمعان، فإنه تعالى واجب فوجوبه يُناقِضُ الإمكان، فعلينا أن نحفَظ كثرةَ المفاهيم الواردة بشأن الله تعالى لا أن نُرجِعَها إلى عنوان خاص، و كذلک الصفاتُ السلبية الواردة بشأنه تعالى حيث يجب أن نحفظ تلک المفاهيم المتعدّدة نظير: ليس بظلّام و ليس بممكن و هكذا، فلا يصح إرجاع الصفات المتكاثرة إلى عنوان واحد.[1]

و نعتقد بأنه الحق إذ إن تلک العناوينَ المطروحة ضمن كلمات العلماء تُعدّ مصاديقَ تلک المفاهيم الواردة بشأنه تعالى فكلّ كلمةٍ مأثورة من جانبهم عليهم السلام تحظى بمعناها المتميّز، فلا داعيَ لإرجاعها إلى عنوان واحد محدّد إذ خصلةُ معنى الإمكانية غيرُ معنى الظلمِ و معنى القدرة غير العلم وهكذا.

مَغزى عينيّةِ الصفات مع الذات و تفسيرُها
و الآن نَتسائل: ما هو معنى أن صفاتِه عينُ ذاته تعالى؟

لقد أجاب الأسفارعنه قائلاً:

بيانٌ تفصيلي: واجب الوجود و إن وصف بالعلم و القدرة و الإرادة و غيرها كما سنُبيّن، لكن ليس وجود هذه الصفات فيه إلا وجود ذاته بذاته فهي و إن تغايرت مفهوماتها ـ لكنَّها في حقه تعالى موجودة بوجود واحد (فليس العلم أو القدرة أو... من قبيل أجزاء الله تعالى، عكسَ الإنسان الذي فِكره مكنونٌ في مُخّه و قدرتُه مُدَّخرةٌ في يديه و هكذا) كما قال الشيخ في التعليقات: من أن الأول تعالى لا يتكثّر لأجل تكثر صفاته (بل يظل واحداً رغم تلوّن الصفات) لأن كل واحدة من صفاته إذا حُقّقت ـ تكون الصفة الأخرى بالقياس إليه (مُندمِجَتان معاً) فيكون قدرتُه حياتَه (فلا يَنفكّان عن بعضهما بل مندجان معاً بخلاف الإنسان الذي عجبُه غيرُ قدرته و علمُه غيرُ قدرته و هكذا) و حياتُه قدرتَه و تكونان واحدةً فهو حيّ من حيث هو قادر و قادر من حيث هو حي و كذا في سائر صفاته. (و هذا لا يَجري في المُمكنات فلا يقال: هو عالم لأنه قادر، بل يقال: إن اللهَ قادر لأنه حيّ فكافة الصفات الذاتية عينُ ذاته تعالى)

و قال أبو طالب المكي مشيته تعالى قدرتُه و ما يدركه بصفة يدركه بجميع الصفات إذ لا اختلاف هناك و سيأتي زيادة توضيح لهذا المقام بوجه يظهر لك مزلة بعض ..... كما أن ذاته بذاته مع كمال فردانيته و أحديته يستحق هذه الأسماء من العلم و القدرة و الحياة من غير أن يتكثر و يتعدد حقيقة أو اعتباراً و حيثيةً لأن حيثية الذات بعينها حيثية هذه الصفات ـ كما قال أبو نصر

الفارابي: وجودٌ كلُّه وجوبٌ كلُّه علمٌ كله قدرةٌ كلُّه حياةٌ كله لا أن شيئاً منه علم و شيئا آخر منه قدرة ليَلزمَ التركيبُ في ذاته و لا أن شيئا فيه علم و شيئا آخر فيه قدرة ليلزم التكثر في صفاته الحقيقية (كما في الإنسان المركّب و المتشكّلِ من هذه الصفات بدرجةٍ محدّدة) فكذا صفاته الإضافية لا يتكثر معناها و لا يختلف مقتضاها و إن كانت (الصفاتُ الإضافية كالخالقية و الرازقية) زائدةً على ذاته فمَبدئيتّه بعينها رازقيّتُه (أي إن حياتَه تعالى مبدءٌ لصفة الرزق) و بالعكس و هما بعينهما جودُه و كرمه و بالعكس و هكذا في العفو و المغفرة و الرضا و غيرها إذ لو اختلف جهاتُها (الإضافية) و تكثرت حيثياتها لأدّى تكثّرُها إلى تكثّر مباديها- و قد علمت أنها عين ذاته تعالى.[2]

و كنَموذجٍ آخر: يا من سبقت رحمتُه غضبَه. فإن السبقَ لا يستتبعُ التكثّر و الغيرية في صفاته تعالى، أجل، من زعمَ لله التقدّم و التأخّر ما بين الغضب و الرحمة لحقّ له أن يتصوّر السباق و الرُتَب ما بين الصفات الإلهية، و لكنه مزعومةٌ مهزوزة، إذ إن أمثال هذه التعابير ربما صدرت من باب ضيق الخناق و قصورِ الألفاظ عن تبيانِ كُنهِ ذاته و صفاته تعالى، و ربما عَنى بالسبق المذكور التوسعةَ و الاستيعابَ التام وفقاً للآية التالية: ربّنا وسِعتَ كلَّ شيئ رحمةً وعلماً.

السببُ في عينيّة الصفات الذاتيّة مع ذاته تعالى

ربما يَتسائل البعض بأنه ما هو السبب الذي استدعى الحكماءَ لكي يُطبّقوا الصفاتِ على عين الذات و يُدمِجوها معاً؟

لقد أجاب السيد الخمينيّ عنه قائلاً:

إن صرفَ الوجود صرفُ كلّ كمال و جمال، لا تشُذّ عنه حيثيّةٌ كمالية بل يرجع كلّ كمال و جمال إلى حقيقة الوجود بحسب الخارج، و إلّا (لولا العينيّة في الصفات) يلزم الأصلان (أي لأصبح تعالى شيئينِ فيُعارض التوحيد و الأحديّة ثم يستتبعُ الشرك) أو الاصول، و التركيب في ذاته، و الخلف في صرافة الوجود، و الإمكان في الوجود الواجبي، إلى غير ذلك ممّا يطول ذكرها و ذكرُ البراهين عليها.

و لُبّ الإجابة هي أن صِرفَ الوجود يُعدّ كلَ الوجود الكامل و هو كلُ الجمال الزاهر أيضاً، إذن فعنصرُ الصِرفيّة و المحضيّة هي التي تَستدعي و تُسبّب الاندماجَ مع صفاته الذاتية بخلاف الإنسان قد تركّبَ تَحدّد بالماهيّة إذ الإنسان غيرُ الجدار و غيرُ المَلَك و البقرِ، فهذه الحدود قد ميّزته عن الغير، بينما الله سبحانه لا حدودَ له لأنه وجودٌ مطلقٌ بلا ماهية أساساً إذن فالقدرة و الوجود عينُ ذاته تعالى.

دِراسةُ عينيّةِ الصفات مع الذات الإلهيّ وفقاً لأصالة الوجود و أصالة الماهية

ربما يتسائل البعض: هل تَبتني عينيةُ الصفات مع الذات الإلهيّ على أصالة الوجود فحسب كما يبدو من ظاهر عبارة السيد الخمينيّ حيث قد أصبحت أصالةُ الوجود مبرهَنةً و مسلَّمةً لديه تماماً؟

الإجابة: كلّا إذ صاحبُ الأسفارِ قد سرَد أدلةً متعددةً عن الحُكماء حول العينيّة ثم ناقشَها و ناقضَها أجمعَ، ثم تولّى بنفسه للإجابة عنها وفقاً لِكلتا الأصالتَينِ، و لهذا فلا يَبتني الحوارُ على أصالة الوجود فحسب.

و كذلك الشيخ الإشراق حيث انتهَج نهجَ أصالةِ الماهيّة، بينما أغلبية الحُكماء قد ساروا نحوَ أصالة الوجود و هو الحق لدينا أيضاً، و على أيّ تقديرٍ، فإنه وفقاً لأصالة الماهية أيضاً لا يَنتُج تغايرُ الصفات مع الذات الإلهيّ، إذ إن الماهويَّ أيضاً يُقرّ بأنه تعالى وجودٌ محض و ذات بسيط فيَستَنتِج أنه تعالى هو كلّ الأشياء و أن صفاته الكمالية هي عينُ ذاته تعالى فلا تركّب فيه.

النكتة المرموزة في هذا المضمار

ثمةَ نقطةٌ فذّةٌ بشأن هذه الأبحاث المُستَعصِية، قد تجاهرَ بها الأسفارُ قائلاً:

الفصل في أن واجب الوجود تمام الأشياء و كل الموجودات و إليه يرجع الأمور كلها:

هذا من الغوامض الإلهيّة التي يُستصعَب إدراكه إلا على من آتاه الله من لدنه علماً و حكمةً (نظير المعصوم أو تالي تلوه) لكن البرهان قائم على أن كلَّ بسيط الحقيقة (كالباري تعالى الذي هو صرف الوجود بحتاً) كل الأشياء الوجودية إلا ما يتعلق بالنقائص و الأعدام (لأنها تعارض الوجود البسيط التام) و الواجبُ تعالى بسيط الحقيقة واحد من جميع الوجوه فهو كل الوجود كما أن كلَه (تعالى) الوجودُ (فخيث إنه محض الوجود فهو يُحاذي و يُضاهي كلَ الصفاتِ التامة تماماً).[3]

أما بيان الكبرى فهو أن الهوية البسيطة الإلهية لو لم يكن كلَ الأشياء لكانت ذاتُه متحصِلَةَ القوام من كون شيء و لا كون شيء آخر فيتركب ذاته و لو بحسب اعتبار العقل و تحليله من حيثيتين مختلفتين و قد فُرض و ثبت أنه بسيط الحقيقة، هذا خلفُ المفروضِ أنه بسيط إذا كان شيئا دون شيء آخر كأن يكون ألِفاً دون ب ـ فحيثية كونه ألفا ليست بعينها حيثية ليس ب و إلا لكان مفهومُ ألف و مفهوم ليس ب شيئا واحدا (فيلزم التركبَ في الشيئ الواحد، بينما البساطة الإلهية تَستدعي الوجود المحض و هذا الوجود المحض يَستتبع العينية وفقاً لهذا الترتيب) و اللازم باطل لاستحالة كون الوجود و العدم أمرا واحدا فالملزوم مثله فثبت أن البسيط كل الأشياء.[4]

---

[1] شرح المنظومة ج2 ص 110

[2] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۲۱

[3] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۱۰

[4] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۱۲